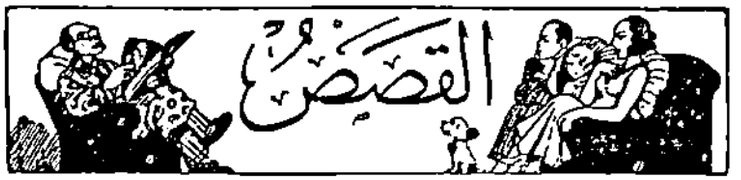

الغلاف ذو الأختام الحمر

للكاتب الفرنسي موريس لبلان

بقلم الدكتور محمد غلاب

في مساء اليوم الخامس والعشرين بعد وفاة « جاكيلين » أنس زوجها « جيوم » من نفسه الشجاعة على دخول غرفة تلك التي أحبها حبا شديد العمق خصب السعادة .

وكان يريد أن يتنسم على الأخص عطر الماضي بقراءة تلك الرسائل التي كتبها هو إليها في الأوقات التي كانت الحياة فيها ترغمهما على مفارقات قاسية . وكانت « جاكيلين » تحفظ كل رسائلها في علبة من الأبنوس المطعم بالصدف لا يفارقها مفتاحها أبدا . فلما فتح هذه العلبة ألفى بها عدة حزم من الرسائل مربوطة بأشرطة مختلفة الألوان ، ووجد على كل حزمة علامة تميزها من غيرها وتعين عصرها ، فعلى إحداها مثلا كتبت « جيوم في الجزائر » وعلى الثانية « جيوم في الجيش » وهكذا ، وكانت تحت هذه الحزم كراسة معروقة تماما لجيوم ، وهي نوع من اليوميات التي كانت « جاكيلين » تقيد فيها إحساسهما المشترك ، ومسراتهما وأحزانهما .

غير أن جيوم حين أخرج هذه الكراسة زحزح قطعة من القطيفة كانت تغطي قاع العلبة ، فلما رفع هذه القطعة دهشم كل الدهش إذ ألفى تحتها غلافا أصفر مختوما بخمسة أختام حمر وكأنه يحتوي على كمية من الأوراق .

فلما نظر إلى هذا الغلاف عرف خط زوجته وقرأ عليه هذه الجملة : « يسلم بعد موتي إلى صديقتي هانرييت ديسيز » .

لم يتردد جيوم ثانية في فتحه ، فمع أنه حميد الأخلاق إلى حد بعيد ، وبرغم أنه طول حياة جاكيلين لم يفتح قط رسالة موجهة إليها فإنه بحركة لجائية وبدون تردد ، وبدافع غريزة تغلبت فيه على كل شيء قد فض الأختام ومزق الغلاف .

إنها رسائل ، ورسائل رجل .

تناول إحداها بيد مرتعشة .

إنها تبتدىء بهذه الكلمة : « عزيزتي المعبودة ... » .

أدار الصفحة ونظر إلى الإمضاء فألفاه : « رفائيل » .

وفي الحال فهم كل شيء ، فقد كان « رفائيل دورميفال » أثناء الشهور الأخيرة التي سبقت مرض « جاكيلين » يتردد على منزلهم ، بل طالما دخل جيوم فألفى هذا الرجل جالسا بالقرب من زوجته ، فالآن قد أدرك معنى صمتهما الذي كان يسببه لهما حضوره المضايق .

وفي هذه اللحظة كانت الساعة تدق الحادية عشرة مساء ، فنهض وغادر الحجرة وتناول قبعته ومعطفه وخرج إلى الطريق ، فاستقل سيارة أجرة إلى نادي شارع كابوسين فصعد إليه فألفى هناك عدة مناضد مشغولة بلاعبي الورق ، وفي نهاية إحدى القاعات الكبيرة كان عدد من الأشخاص يلعبون « البوكر » فوقع نظره بينهم على رفائيل دورميفال ، فاقترب جيوم من المنضدة وألقى عليها بضع قطع من الذهب ليشترك في اللعب . وبعد دقائق رأى الحاضرون بدهشة فائقة أنه بدون مبرر ، أو بمبرر تافه قد أخذ يسب دورميفال بأفظع الأساليب ، وفي النهاية تبادلا البطاقات واتفقا على تعيين شهود المبارزة .

وبعد ذلك عاد جيوم إلى منزله فتناول صورتي جاكيلين الفوتوغرافيتين اللتين كانتا تزينان موقد غرفته وألقى بهما في النار . ثم دخل حجرة الاستقبال فخلع صورتها الزيتية ومزقها وألقى بها في النار كذلك قطعة إثر قطعة ، وعلى أثر هذا نام نوما هادئا بعض الشيء ، وحينما استيقظ في اليوم التالي ألفى نفسه ساكنا لأنه كان يخيل إليه أنه قتل تلك الميتة مرة ثانية ما دام قد قتلها في نفسه نهائيا وإلى الأبد ، وأن ذكريات الخيانة المرعبة لن تتسلط عليه أبدا ، وأن كائنا واحدا يمكن أن يذكره بهذه الخيانة وهو رفائيل دورميفال ، وهذا الكائن سيموت ولن يبقى بعد ذلك شيء من الماضي .

وفي الساعة العاشرة اجتمع الشهود ، وفي الرابعة حدثت

المبارزة ، وعندما ألفى جيوم نفسه تجاه خصمه أحس كأن الغيظ منه وألحقد عليه يقفزان به ، وإذ ذاك فقط تألم وعرف بحق وبهيئة عميقة أن الحياة لن تكون ممكنة بالنسبة إليه مادام هذا الرجل يحيا .

هاجمه مرتين بعنف بالغ أشده حتى اضطر الشهود إلى التفريق بينهما ، وفى المهاجمة الثالثة ألقى بنفسه عليه واخترق جسمه بضربة من سيفه فهوى وأسلم الروح لساعته .

وبعد أن فارق جيوم شاهديه أخذ يتنزه فى الغابة ساعة ، ولم تكن أية فكرة تهيجه إذ ذاك ، غاية ما فى الأمر أنه كان يحس بأن عقله كثيف مظلم مختلط لا تستطيع الفكرة أن تصدر عنه ، بل لم يعد يعرف هل لا يزال يتألم ؟ وهل شفى غليل حقده من خصمه ؟ وفى ساعة العشاء ألفى نفسه من جديد فى منزله ، وعلى أثر ذلك أنبأه خادمه بأن سيدة تنتظره فى حجرة الاستقبال منذ ساعة على الأقل ، فاتجه إليها فألفاها « هانريت ديسيز » تلك الصديقة المخلصة وكاتمة السر التى أوصت « جاكيلين » بتسليم رسائلها الغرامية إليها والتى لم يكن جيوم قد رآها منذ وفاة زوجته لأنها كانت قد سافرت فى اليوم التالى ، فتبادلا معاً بضع كلمات أعلنت إليه هانريت فيها أنها تصل الساعة مباشرة من الجنوب ، وأنها نالت الحكم بالطلاق ضد زوجها ، وأنها معتزمة الزواج على أثر مضى العدة . فقال بغير اكتراث :— آه .

وفى الحال سألته فى نبرة مرتبكة قائلة :

ألم تجد بين أوراق جاكيلين حزمة لى ... غلافا مختوما ؟

فنظر جيوم إلى تلك الشابة نظرة شزراء وكاد يوبخها على تآمرها مع زوجته الراحلة ، ولكن ما الفائدة فى ذلك ؟

أجابها على سؤالها بقوله :

— نعم وجدت غلافا باسمك

— وإذاً ، فأين هو ؟

— قد أحرقته

فظهرت الكآبة على وجهها وقالت :

— كيف ! أحرقته ! كيف ! لكن لم يكن ذلك من حقك

— لم يكن ذلك من حقى !

— لا ، فهذه الرسائل كانت ملكى ، وجاكيلين كانت تحفظها ، لتؤدى لى بذلك خدمة ، ولكن كان من المفهوم أن أستعيدها فى يوم أو فى آخر ... ولما رأت أن جيوم لا يظهر عليه أنه فاهم استمرت تقول فى دهشة :

— آه ! ألم تقل لك جاكيلين ؟ مسكينة جاكيلين ! لم أطلب منها كتمان السر إلى هذا الحد ولا سيما ما يتعلق بك

فقال فى رعدة وفزع : — ماذا ؟ ماذا ؟

— نعم لما كنت منتظرة الطلاق فقد كنت أخشى أن تكتشف هذه الرسائل عندى ، وكنت أحتفظ بها إلى حد يمنعنى من إبادتها ! وقد كانت جاكيلين وحدها هى التى تستطيع تحفظها لى ما دامت تعرف سر حياتى .

— أى سر ؟ . تمتم جيوم بهذا السؤال فأجابته قائلة :

— آه ! أنت لا تعرف ، فأنا أحب أحد الناس — هو أحد أصدقائك ، وكان يتردد كثيرا على منزلك ...

فتمالك جيوم قواه وسألها قائلا :

— أهو رفائيل دور ميفال ؟ .

فأجابته الشابة وفى قلبها ذلك الاسترواح الذى يشعر به المحب حينما يذكر اسم محبوبه قائلة :

— نعم ، نعم هو رفائيل . يجب أن نتزوج ، وسأراه بعد قليل

نطقت بهذه الكلمات وهى واقفة تستعد للخروج ، وكان وجهها جميلا سعيدا بتلألأ بكل ما لديها من سرور وكانت عينا تبتسمان ، وكانتا مبللتين قليلا كأن الهناء قد ألانهما .

فتأفأ وتمتم قائلا : — أنت ذاهبة ... أنت ذاهبة ...

— نعم أنا ذاهبة إلى منزله ... إنه لا يتوقع مجيئى إلا غدا أية مفاجأة ! لهذا كنت أسر لو حصلت على رسائله لأننا كنا نعتزم أن نقرأها معاً على أثر نيلنا حريتنا .

اسمى ... اسمى ...

كان جيوم إذ ذاك يشعر أنه صار مجنونا ، إذ فهم أن شيئا هائلا وفظيعا قد وقع ، شيئا سيترك له ذكرى أكثر إرعابا وتعذيبا من موت زوجته نفسها ، وكان يود أن يهيىء هذه السيدة لوقع ذلك النبأ المؤلم ، ولكنه لم يكن يعرف ماذا يقول فقد رفضت شفتاه النطق بتلك الكلمات الروعة ، وجعل ينظر إليها مضطربا كما ينظر الإنسان إلى أولئك الذين أصيبوا بكوارث تتجاوز القوى البشرية . وبدون أن ينبس بكلمة ، وبدون أية إشارة ، وفى رعشة الخوف والفم والقلق تركها تخرج .

محمد غلاب